

تيمور لُنك سيرة وعبرة

محمد يوسف عدس

التتار فرع من فروع المغول وتيمور لُنك واحد من قادتهم الذين ورثوا من جدّهم الأعلى جنكيز خان شراسته ووحشيته المروعة ، فقد أقام هو وأتباعه إمبراطورية على أشلاء البشر وجماجمهم ، وكانت غلظة طباعه وعشقه للعيش في الصحراء وكراهيته هو وشعبه للتحضر والإقامة في المدن كراهية لا حدود لها .. واستمر هذا المقت العجيب لآثار الحضارة مسيطراً على عقله وعقول أتباعه قرونًا من الزمن ، فلم يدخلوا مدينة إلا دموها عن آخرها تدميراً . وعندما أظهر الحاكم المغولي "ترماشيرين" ميلاً إلى الإسلام والعيش في المدن المتحضرة إعترض أمراء المغول الآخرون ورأوا في ذلك إفسادًا لتقاليدهم القبلية ، فانقضوا عليه وقتلوه عام ١٣٣٤م ...

ولم يكن تيمور لُنك استثناء من هذه الطبيعة القاسية الدموية البشعة رغم أنه اعتنق الإسلام ظاهرياً ، ولكنه ظل على طبيعته ؛ حيث قام بتنظيم جيش ضخم معظمه من المغول ، وبدأ يتطلع إلى بسط نفوذه ، فاتجه إلى خوارزم ؛ فغزاها أربع مرات بين عامي ١٣٧٢ و١٣٧٩م ، حتى نجح في الاستيلاء عليها وضمها إلى ممتلكاته ، بعد أن أصابها بالخراب والدمار الشامل .. وظلت خراباً خالية من السكان حتى أمر بإعادة تعميرها سنة ١٣٩١م .

كان تيمور لُنك مدفوعاً بطموحات ورغبات عارمة للتوسع في غزواته وبسط سلطانه على الإمارات الإسلامية حتى فرض سيطرته الكاملة على إقليم خراسان ، وأفغانستان.. ثم انطلق بجيوشه إلى أذربيجان وفارس وأصفهان فأخضعها جميعاً ، ولأن أصفهان كانت قد ثارت على مندوبيه فيها ، نكل بأهلها تنكيلاً مروّعاً حتى بلغ عدد قتلاهم سبعين ألفاً ، أقام تيمور لُنك من جماجمهم أهرامات ليروّع بها من بقي على قيد الحياة ، ويذكرهم بجبروته وعظيم انتقامه.

بلغ تيمور لُنك الستين من عمره ، وكان من المظنون أن يركن إلى الراحة لينعم بملكه وسلطانه .. ولكنه مضى في محاولاته المتواصلة لإشباع شهواته العارمة في قهر مزيد من البشر، وتدمير العمران الإنساني ؛ ففي عام ١٣٩٧م انطلق إلى الهند وأنزل بحاكمها [المسلم] هزيمة ساحقة ، فلما تمكّن من دلهي العاصمة قام بتدميرها وإشاعة الخراب بها فلم تنهض مما أصابها عل يديه إلا بعد قرن ونصف القرن ..

والعجيب في الأمر هنا أن تيمور لُنك عاد بسبعين فيلاً محمّلة بالأحجار الفاخرة والرخام من أنقاض دلهي ليبنى بها [مسجداً] في سمرقند عاصمة إمبراطوريته!!

لم يمكث تيمور لُنك طويلاً في سمرقند بعد عودته المظفّرة من الهند ؛ بل أخذ يستعدّ للخروج ومواصلة الغزو، وانطلق في حملة كبيرة سُميت بحملة السنوات السبع [من ١٣٩٩ إلى

١٤٠٥م) ؛ حيث بدأ باكتساح قراباغ بين أرمينيا وأذربيجان ؛ فقتل وسبى. ثم توجه إلى تيفليس [تبليسي] عاصمة "جورجيا" ونهبها ، ثم توجه إلى إلبا سيواس ، وقبض على مقاتليها ، وكان عددهم ثلاثة آلاف رجل ، فحفر لهم نفقاً في الأرض وألقاهم فيه أحياءً ثم أمر بإهالة التراب عليهم ليموتوا .. ثم عمل سيفه في أهل البلد العزل من السلاح ، وخرّبها حتى محارستومها .. ثم اتجه إلى حلب ، التي استنجدت بالمماليك في مصر فرفضوا نجاتها لانشغالهم بالصراع مع حكام الشام على السلطة .. وكانت النتيجة مروعة لأبناء حلب ، فقد بلغ عدد القتلى فيها عشرين ألفاً والأسرى أكثر من ثلاثمئة ألف .. ناهيك عن عمليات النهب والحرق والسبي والتخريب التي قام بها جيش تيمور لك ، الذي انتقل في زحفه إلى حماة والسلمية فلم يكن حظهما بأحسن حال من حلب ..

وواصل تيمور لك زحفه إلى دمشق التي استمات أهلها في الدفاع عن مدينتهم، لكن ذلك لم يكن كافياً لمواجهة جيش جرار يقوده قائد محنك، فاضطروا إلى تسليمها ، أملاً في إنقاذها من الخراب ، ولكن ما أن دخلها تيمور لك حتى أمر بأشعال النيران فيها ثلاثة أيام حتى أتت عليها وأصبحت أطلالاً. وبعد أن أقام بها ثمانين يوماً ، رحل عنها مصطحباً أفضل علمائها وأمهر صناعها، واتجه بعد ذلك إلى طرابلس وبلعبك فدمرهما. وعند مروره على حلب أحرقها مرة ثانية وهدم أبراجها وقلعتها. وهكذا تحولت [سوريا] بأسرها إلى أنقاض وخرائب.

ولأن مصير سوريا مرتبط عبر التاريخ بالعراق [الأسباب قدرية لا ندركها نحن ، ولكن يعرفها الغزاة البرابرة العتاة في الماضي والحاضر]، انتقل تيمور لك مباشرة إلى بغداد ، فهاجمها هجوماً شديداً، ودمر أسوارها، وأحرق بيوتها، وأوقع القتل بعشرات الآلاف من أهلها، ولم تستطع المدينة المنكوبة المقاومة فسقطت تحت وطأة الهجوم الكاسح في يد تيمور لك ، الذي ألزم جنوده أن يأتيه كل واحد منهم برأسين من رؤوس أهل بغداد الذين لم يشاركوا في قتال . فكان مجموع من تم قتلهم في بغداد أكثر من مئتي ألف إنسان. لا يشملون عدداً آخر ممن ألقوا بأنفسهم في نهر دجلة فغرقوا هرباً من بطش تيمور لك وانتقامه .

لم يكد تيمور لك أن يستقر في سمرقند حتى بدأ يعدّ العدة لغزو الصين في خريف سنة ١٤٠٤ م. وكان الجو شديد البرودة ، ونصح الأطباء ألا يجازف بالخروج إلى الغزو فعاندهم وواصل حملته . عانى جيشه قسوة البرد والثلوج ، ولم يتحمل هو البرودة القاسية ، فأصيب بالحمى التي أودت بحياته .. مات دون تحقيق كل أطماعه التي لم تتوقف عند حد ، ودون الشعور بالرضا عن إشباع شهواته الجامحة أو تحقيق رغباته المتصاعدة في السطوة والسيطرة على البشر .. مات مخلقاً إمبراطورية واسعة الأرجاء ، لم ينعم فيها بيوم واحد من راحة البدن أو راحة النفس .. مات تيمور لك مقهوراً عاجزاً أنما ملعوناً من البشر عبر التاريخ كله إلى يوم الناس هذا.

تشاء الأقدار أن المناطق والبلدان التي دمرها تيمور لك وسفك فيها دماء المسلمين- مشمولة جميعها بدراسة جغرافية وحضارية في كتاب مشهور بعنوان: "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" للرحالة الأشهر "المقسيّ البشاريّ" .. أورد هذه المعلومة لأطلع القارئ

على حقيقة أوضاع هذه البلاد وحالتها قبل أن يدمرها تيمور لنك بأربع مئة عام عندما كانت تتمتع في ظلال الحكم الإسلامي والحضارة الإسلامية بالأمن والرخاء والعمران ؛ فقد ألف المقدسي كتابه سنة ٣٧٥ هجرية ، بينما بدأ تيمور لنك مسيرته التخريبية تقريباً سنة ٧٧٥هـ. فماذا قال المقدسي عن بلاد ما وراء النهر ويقصد بها بلاد آسيا الوسطى [أو تركستان] :

"أعلم أن هذا الجانب أخصب بلاد الله تعالى وأكثرها خيراً وفقها وعمارة .. ورغبة في العلم واستقامة في الدين ، وأدومُ جهاداً وأسلم صدرًا، وعلى الجملة: الإسلام به طرىّ والسلطان قويّ ، والعدل ظاهر والفقهاء ماهر، ومنابره أكثر من أن توصف...".

أقول: لم يأت هذا من الهواء الطلق وإنما أقامته عقول وسواعد قادة من المسلمين الأفاضل بجهادهم وتضحياتهم وتجردهم وإخلاصهم لله .. من أبرز هؤلاء قتيبة بن مسلم الباهليّ .. كان من أوائل الفاتحين العظام الذين نشروا الإسلام في آسيا الوسطى وامتدت فتوحاته إلى الصين .. فاقراً معي هذه الحقيقة التاريخية التي تدل على حكمة هذا الفاتح العظيم وعبقريته :

بنّي "قتيبة بن مسلم" والى خراسان أول مسجد جامع في بخاري .. ولأن أهلها كانوا حديثي عهد بالإسلام ، ومتحمسين لممارسة العبادات الإسلامية فوراً- أفتى لهم قتيبة بجواز أداء شعيرة الصلاة بلغتهم الفارسية [حتى يتم تعليمهم اللغة العربية] .. ومن أجل ذلك تُرجمت لهم معاني القرآن .. وهذا في الحقيقة وعي إنسانيّ وبصيرة نافذة من جانب قائد مسلم يؤسس لميلاد حضارة جديدة تستوعب فطرة الإنسان ورحابة الشريعة معا .. وقد أثبت التاريخ بُعد نظر قتيبة بن مسلم .. فلم يلبث المسلمون هناك طويلاً حتى أتقنوا اللغة العربية وكتبوا بها .. وظهر من أبنائهم أعظم الشخصيات التي خدمت الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية واللغة العربية نفسها ..

كان التعليم وطلب العلم واحترام حملته قيم عميقة الجذور في المجتمعات الإسلامية بآسيا الوسطى، وقد حدث أن زار سمرقند رحالة صيني سنة ٦١٠ هـ. وسجل في كتاباته أن أهل هذه المدينة كانوا يعلمون أبناءهم القراءة والكتابة ابتداءً من سن الخامسة، فإذا تعلموا القراءة انتقلوا إلى تعلم سائر العلوم بما فيها علم التجارة ..

يبدو أن الإسلام بطبيعته لا يحل بأرض ويستقر فيها إلا انقشعت عنها ظلمات الأمية والجهل وازدهرت فيها الحضارة .. كان هذا واضحاً في أسبانيا وحتى في جزر بالفلبين .. [ويعجب الإنسان لحال المسلمين اليوم .. فلا بد أن شيئاً فاسداً عميق الفساد قد أصاب مجتمعاتهم ونظم إدارتها .. فالأمية الضارية تحصد عقول المسلمين وتمكّن للنظم المستبدة من رقابهم ..]

في هذا المناخ التعليمي والثقافي وفي ظل الروح الإسلامية التي تمجد العلم والعلماء وتطلق للملكات الإنسانية حرية النظر والبحث في الآفاق وفي الأنفس تفجرت عبقرية العلماء والفلاسفة والمفكرين وظهر المبدعون في بلاد ما وراء النهر .. كانوا نخبة من أشهر الرواد في تاريخ الحضارة الإسلامية ؛ فمن جامعي الحديث ومحققه خرج من هذه البلاد ستة رجال أفذاذ: البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .. وخرج من هذه البلاد حجة الإسلام أبو حامد الغزالي الذي شق بكتابه "تهافت الفلاسفة" و "إحياء علوم الدين" مجرى عميقاً في تيار الفكر الإسلامي لا يزال يتردد إلى اليوم في كتابات ومواقف المفكرين المحدثين.

وفي العلوم الرياضية والطبيعية أخرجت هذه البلاد أبرز الرياضيين وأشهرهم في العالم الإسلامي ، كان منهم: الخوارزمي في الرياضيات وهو أبرز المؤلفين فيها ، والفرغاني صاحب كتاب "جامع علم النجوم والحركات السماوية" في علم الفلك ، وأبو حامد الجوفقي [من ولاية جوقندا] الذي اخترع وأنشأ جهازاً للرصد الفلكي .. ونبغ في الجغرافيا: أبو زيد أحمد بن سهيل البلخي ، وأبو إسحاق الفارسي الإصطخري ، وأبو القاسم بن حوقل النسيبي ، وفي الطب: ظل كتاب الرازي حجة في الطب في أوروبا حتى القرن السابع عشر .

وكان الرازي أول من اخترع خيوط الجراحة ومراهم الزئبق وكتب في أمراض الأطفال ، والجذري والحصبة ، ويعتبر كتابه "الحاوي" أكبر موسوعة طبية ظهرت باللغة العربية وترجمت إلى اللغة اللاتينية .. وابن سينا الفيلسوف المشهور كان أيضاً من علماء الطب .. وبرز في التأليف الطبي أيضاً أبو بكر ربيع بن أحمد الأخويني ، وحكيم الميسري والهروي والجرجاني .. وكان من أبرز وأشهر المفكرين الموسوعيين في الحضارة الإسلامية ثلاثة أعلام ما تزال أسماؤهم تتردد في الكتابات الحديثة إلى اليوم ، وهم: أبو علي بن سينا وأبو نصر الفارابي وأبو حيان محمد بن أحمد البيروني .. وكان الزمخشري صاحب صيت وشهرة ، إكتسب كتابه في تفسير القرآن مكانة رفيعة في هذا المجال..

ورغم كل ما نزل ببلاد المسلمين من تشرذم وكوارث استمر العطاء الحضاري لبلاد ما وراء النهر متواصلاً في خراسان في عهد السلاجقة فازدهر الأدب بالفارسية ، واستمر نمو العلوم باللغتين العربية والفارسية ، حيث ظهر في كنفهم أبرز العلماء ورجال السياسة والإدارة والشعراء ، من أمثال أبو حامد الغزالي وعمر الخيام ، و "نظام الملك" وهو الاسم الذي اشتهر به أبو علي الحسن بن إسحاق الطوسي ، عينه الملك "ألب أرسلان" وزيراً له سنة ١٠٦٤م وبقي في منصبه في عهد خليفته السلطان ملكشاه (١٠٧٢م) ...

اشتهر نظام الملك بجهوده في الحفاظ على سلامة جوهر الإسلام من شرور الفرق الضالة التي ادّعت الإسلام وهي خارجة عليه ، وتحسنت في عهده علاقة السلاجقة بالخلفاء العباسيين في بغداد ، واشتهر بتشجيع العلم والتعليم ، وإليه تنسب أعظم المؤسسات التعليمية التي أقيمت في أنحاء العالم الإسلامي وهي المعاهد المعروفة باسم "المدارس النظامية" ، ومن أشهرها المدرسة النظامية في بغداد التي كانت بمثابة جامعة ومراكز للبحث في آن

واحد، أشرف عليها "نظام الملك" بنفسه واختار لها العلماء والأساتذة ، وأصبحت هذه الجامعة نموذجاً يُحتذى في بقية العالم الإسلامي ...

لابد من إيراد ملاحظة هنا وهي أن الحضارة الإسلامية كان لها من القوة الأسرة ومن القدرة على اجتذاب البشر ودمغهم بطابعها الخاص حتى أولئك الذين تحدّوها في بادئ الأمر وناصرها أهلها العداء بل أسرفوا في قتلهم وتدمير بلادهم كما فعل المغول والتتار.. ولكنهم سرعان ما اعتنقوا الإسلام وكرسوا أنفسهم لخدمته ونشره ومواصلة حضارته في أنحاء الأرض ..

ذلك لأنه دين لسائر البشر وليس مقصوراً على قومية بعينها أو جنسٍ أو لونٍ.. ولا يعترف بالطبقات ولا الإمتيازات ولا الحقوق الإلهية الموروثة ولا بالتفوق العنصري لجنسٍ على جنسٍ آخر.. وليس في قيمه الثقافية مكان لاحتقار البشر أو إستعبادهم وقهرهم .. ومن ثم كانت حضارته ساحرة أسرة إستوعبت كل أنواع البشر.. وأسهمت كل الشعوب التي عاشت في كنفها بأفضل ما تملك من مواهب وإبداعات ..

عبرية الحضارة الإسلامية تتجلى هنا في واحدة من أخص خصائصها وهي أنها أطلقت الحرية الكاملة للشعوب لكي تبدع وتعطي وتشارك وتنهل في نفس الوقت من ثمرات هذه الحضارة وتنعم بخيراتها ...

وبنظرة واحدة محايدة يدرك الإنسان مدى الفرق الهائل بين هذه الحضارة وبين الحضارة الغربية التي مكّنت أوربا من قهر الشعوب في ثلاث قارات لتنهب ثرواتها وتستعبدها وتتركها بعد ذلك فريسة للفقر والتخلف .. بعد أن استقطبت فئات من أبنائها مكّنتهم من التعليم الغربي ، وساعدتهم في السلطة والسيطرة على شعوبهم .. ليستمر النهب والإستعباد مسلطاً على هذه الشعوب .. ولتستمر مصالح الغرب الأناثية قائمة إلى الأبد .. هذه هي الصورة الحقيقية للعلاقة الآثمة بين الغرب وبين الشعوب الأخرى :

[فمن وجهة نظرهم] هي علاقة السيد المسيطر بالعبد المقهور .. علاقة النبيل بالوضيع .. المتأله العبقري بالحشرة الغبي .. العالم المخترع بالجاهل الذي لا يقدر على تسيير أموره بنفسه .. الغني المتفضل بالشحاذ المتسول ... صاحب الشرف والوجاهة و الكرامة بالخصيس الدني الحاقد المخرب ، وفي آخر المطاف اكتسب عندهم إسم الإرهابي إلى الأبد.

وكما يقول المسلمون بُني الإسلام على خمس هي أركان الإسلام المعروفة كذلك يمكن القول بأن عقيدة الغرب الراسخة في علاقاته بالآخرين تقوم على أربعة مبادئ أو أركان: مبدأ البقاء للأصلح لصاحبه دارون [ويقصدون الأقوي] ، الانتهازية المكيافلية لمكيافلي [الغاية تبرر الوسيلة] ، ومبدأ المنفعة في الأخلاق لجون ستيوارت مل ، و البراجماتية لوليام جيمس. ولقد ضربت مثلاً بتييمور لنك لسببين:

أولاً- لأنه في كل سلوكه كان نموذجاً تمثلت فيه هذه المبادئ الأربعة جلية واضحة فهو بحكم فطرته المنحرفة كان يطبق تلقائياً: مبدأ البقاء للأقوى قبل أن يولد دارون، وانتهازية الغاية تبرر الوسيلة قبل أن يوجد مكيا فيللي ، ومذهب المنفعة في الأخلاق والبراجماتية قبل أن تفكر أم "جون استيوارت مل" في حملة ، وقبل أن يولد جد وليم جيمس. فالمسألة لا تحتاج إلى عناء تعليم وتثقيف ، لتكتشف وتتصرف على أسس وقواعد لا أخلاقية ولا إنسانية .. يكفي أن تمتصها من بيئتك وثقافتك المنحرفتين بالطبيعة أوالاكتساب.

وثانياً- لأن طبيب الفلاسفة المبشر بدين إسلامي جديد مع الاحتفاظ بنزعتة التخريبية التفكيرية ، هو أقرب الناس شبهاً بتيمور لنك في معتقداته ونزعتة التخريبية .. وإنما يتميز تيمور لنك عليه بوضوح في فكره وسياسته وسلوكه .. لا التواء فيه ولا مداراة ولا تهتهة .. وأن صاحبنا هذا كعسكري لا يساوى قلامة ظفر لتيمور لنك الذي كان قائداً عسكرياً محنكاً يجيد فنون القتال ويحافظ على جيشه وعلى عقيدته القتالية مهما كانت مروعة .. قضى عمره كله يحارب وينقض على السلاطين والممالك والبشر فيمزقهم بلا رحمة ولا إنسانية ، ولكنه لم يكذب ولم ينافق ولم يلق التهم لمعارضيه ، أو يختطفهم من الطريق ليغيبوا شهوراً في أقبية سجونه المظلمة ، ثم يقتلهم بزعم أنهم قاوموا الشرطة وكانوا مسلحين .. ولم يزعم تيمور لنك أنه رفيق رحيم .. أو أنه لا يعمل ولا يريد إلا مصلحة مصر ومصلحة الشعب العظيم..! بينما هو يعمل لحساب العدو الصهيوني .. ولمن يدفع الثمن من أحط عباد الله في الأرض.

myades34@gmail.com

أشرف جريدة الشعب يوم السبت ١٧ يناير ٢٠١٧